

خطر الفاشستية

على سلام العالم

ومسألة البحر الأبيض المتوسط

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لم يبد خطر الفاشستية على سلام أوروبا وسلام العالم كما يبدو اليوم ؛ ولقد كان رأينا دائماً أن الفاشستية وما تقوم عليه من مبادئ العنف ، وما يحدوها من الأطماع المضطربة ، وما تؤكد به أعمالها وتصريحاتها من احتقار لباديء الحق والمعادلة الدولية ، إنما هي مصدر دائم للشر والخطر على السلام ، وبخاصة على الأمم الضعيفة التي تدين بوجودها واستقلالها لبدأ الحق الطبيعي لا للقوة الفاشية ؛ بيد أن الفاشستية لم تبد من قبل بمثل هذه الجرأة المكشوفة ، وهذا التحدي الواضح ، وهذا التوثب لارتكاب العدوان والشر ، وهذا الاستخفاف بحقوق الشعوب ومصايرها كما تبدو اليوم

منذ أكثر من عام نظمت إيطاليا اعتداءها المثير على الحبشة ، واستطاعت لا بحرب شريفة مشروعة ، ولكن بوسائل همجية ممقوتة أن تقهر هذه الأمة المتكودة وأن تضمها لأملاتها ، وأن تقيم على أنقاض الحريات المقصورة إمبراطورية استعمارية تصول بها اليوم ؛ وفي الصيف الماضي استطاعت الفاشستية الإيطالية وحليفها النازية الألمانية أن تضربا في أسبانيا نار ثورة مضطربة ، ومازالنا إلى اليوم نعدان العسكرية الشائرة بالسلاح وكل صنوف الماونة ، ومازال أسبانيا تتلظى في جحيم الحرب الأهلية ، لأن الفاشستية والنازية تود كل منهما أن تحقق لنفسها ظفراً ممنوعاً يكون مظهره قيام حكومة طغيان فاشستية في أسبانيا على أنقاض الجمهورية ، وظفراً مادياً يقوم بتحقيق بعض المصالح السياسية والعسكرية التي تطمح كل منهما إلى تحقيقها وكما أن مسألة البحر الأبيض المتوسط كانت أثناء الاعتداء الإيطالي على الحبشة شار الخطر والاحتكاك المستمر بين إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فكذلك تثير الحرب الأهلية الأسبانية

ومال ورفاهية وهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يمد يدها بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستغلال بسلطان الحاكمين ، يتنهم بمدحهم بمد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يتودون على نيرهم ، وتفنن في وصف مظاهر التحضر وضروب الترف والهو في المدن

أما الأدب الإنجليزي ، فتأثر بالبيئة العالية في النواحي الثلاث — نواحي مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة — تأثراً كبيراً : فاللغة الإنجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ؛ والمجتمع الإنجليزي تأثر بالمجتمع الإيطالي في عصر الأحياء ، وبالمجتمع الفرنسي في عصر لويس الرابع عشر ؛ ولم يخلُ في عصر من التأثر بحالة العمران في أوروبا ، إذ كانت الحضارة الأوروبية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ؛ وباطلاع الإنجليزي على أوصاف الطبيعة في الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفاً بعمق بلادهم ، وزادوا غوصاً في محاسن الطبيعة في إيطاليا وبلاد اليونان وغيرها

تأثر الأدب الإنجليزي بالبيئة العالية في شتى النواحي ، ولكنه لاستقراره في وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئاً محدوداً لم يطغ على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة في الأدب ، ولم يزد التأثير الخارجي على أن أضاف إلى العناصر المحلية ما يناسبها ويخصبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجج الأدب جانباً من تلك العناصر مثلاً ومزجها بنفسه وصيغها بصيغته الخاصة

فالأدبان العربي والإنجليزي قد نشأ في بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا في مجتمعين متباينين ، وتأثرا بموامل عالية مختلفة ، وهاجر أحدهما من بيئته الأولى إلى بيئة جديدة بينما ظل الآخر في وطنه الأول ، فلا غرو أن يختلف الأدبان في الصبغة والمناحي والأوضاع والأغراض والأخيلة ، اختلافاً يروع الناظر فيهما فيخيل إليه أن ليس هناك تشابه بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، وبكاد يخفى ما فيهما من تعبير مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التي تنفق فيها الطباع الإنسانية ، في شتى المجتمعات ، ويختلف البيئات

فهمى أبو السعود

ألمانيا بالامبراطورية الإيطالية وسيادة إيطاليا على الحبشة ، واتفاق الدولتين على اتخاذ خطة سياسية مشتركة في أواسط أوروبا وشرقها ، وتحالفهما على مقاومة الخطر البلشفي الذي يزعج ألمانيا المحتلة في كل لحظة ؛ واتفاقهما على احترام استقلال النمسا إلى حين ؛ ولم يكن هذا الاتفاق بين الدولتين الفاشيتين مفاجأة في السياسة الدولية ؛ فمن المعروف أن إيطاليا وألمانيا تجمع بينهما روابط خاصة أهمها اتفاق الوسائل والخطط ، والاتحاد في كثير من المطامع والغايات ، ولا سيما المطامع الاستعمارية ؛ وقد كانت ألمانيا أول الدول المؤيدة لإيطاليا يوم اعتدائها على الحبشة ، لأنها تبحث عن الأمن في الامبراطورية التي تبحثها إيطاليا ؛ هذا فضلاً عن اتحاد الدولتين في مناوأة عصبة الأمم ، وسياسة نزع السلاح ، وفي النزعة العسكرية ، والخطط السياسية المنيعة

والواقع أن المسألة الاستعمارية تلعب دوراً كبيراً في الأزمة الدولية الحاضرة ، وفي أزمة البحر الأبيض بنوع خاص ؛ فقد رأينا كيف بدأت هذه الأزمة وتفاقت من جراء اعتداء إيطاليا على الحبشة ووقوف انكلترا في وجه السياسة الإيطالية ، وحشدتها الدول بواسطة عصبة الأمم لتوقيع العقوبات الاقتصادية ضد إيطاليا ؛ والآن وقد كفل اعتداء إيطاليا بالنجاح وفازت بامتلاك الحبشة ، فإنها تتطلع إلى تحطيم المركز الممتاز الذي تستأثر به انكلترا في البحر الأبيض المتوسط لكي تأمن على مواصلاتها مع امبراطوريتها الأفريقية ؛ ومن الحق أن معاونو إيطاليا لاجتزال فرانكو زعيم الثورة الأسبانية لها صلة كبيرة بهذا المشروع الذي تحمل به إيطاليا ؛ ذلك لأن قيام حكومة عسكرية فاشستية في أسبانيا موالية للسياسة الإيطالية ، يهدد مركز انكلترا في جبل طارق وفي غرب البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه يمزق مركز إيطاليا ونفوذهما في هذه المياه خصوصاً إذا نبئت الأنباء القائلة بأن القوات الإيطالية تحتل الآن جزيرة ميورقة الكبرى جزر البليار . وألمانيا تؤيد إيطاليا في هذا الموقف ، وتعاون توار أسبانيا أيضاً ، لأنها ترى في قيام الفاشستية في أسبانيا تقوية للجهة الفاشستية التي تمثلها مع إيطاليا وإضعاف لموقف الدول الديمقراطية : أعني فرنسا وانكلترا في أوروبا . كما أنها ترى في ظفر الفاشستية هزيمة

مسألة البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى ، وتبهرها بصورة أدق وأوسع نطاقاً وأشد خطراً ؛ وقد كانت الأزمة التي أنارتها الحرب الحبشية في هذا البحر محلبة في نوع ما لأنها كانت تتعلق بشرقية فقط ، وتتعلق بالنزاع بين إيطاليا وبريطانيا على السيادة في هذه المياه ، ولكن الأزمة التي تبهرها أسبانيا اليوم أزمة عامة شاملة ، تتعلق بالتوازن في البحر الأبيض المتوسط كله ، وتدخل فيها فضلاً عن إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فرنسا وألمانيا

وقد خطب السنيور موسوليني في ميلان أخيراً في سياسة إيطاليا العامة نحو المشاكل الأوروبية المختلفة وكرر دعاوى إيطاليا القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ووصفه بأنه بحيرة رومانية ، وأنه يجب أن يكون في الواقع كذلك لولا أن بريطانيا تدعى فيه سيادة لا يحق أن تكون لها ، ووجه الدعوة في خطابه إلى بريطانيا أن تنفام مع إيطاليا على قاعدة المساواة في الحقوق والمصالح ؛ لأن كون بريطانيا تتخذ من هذا البحر طريقاً لأملها فيها وراء البحار ، لا يميز لها أن تدعى السيادة فيه والسيطرة على مياهه ؛ وقرن السنيور موسوليني خطابه السياسي كالعادة ببعض التلميحات والتهديدات المسرحية ، فأشار إلى عصبة الأمم بأنها حلم مخيف ، وسخر من مشروع نزع السلاح ونظرية السلامة الاجتماعية ، وما إليها من مثل لتأييد السلام ؛ ولكن الحكومة البريطانية لم تلبث أن أجابت « الدوتشي » على مزاعمه ودعاويه ؛ فذكرت أولاً في خطاب المرش الذي افتتح به البرلمان البريطاني ، أن سياستها الدولية تقوم على تأييد عصبة الأمم وتدعيمها وإصلاحها لتمكين من تأدية مهمتها ، وأنها ما زالت تؤمن بالسلامة الاجتماعية كوسيلة لتأييد السلام والتفان بين الأمم ؛ وأما فيما يتعلق بالبحر الأبيض المتوسط ، فقد ذكرت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها المستر آيدن في مجلس العموم ، أن بريطانيا العظمى تعتبر هذا البحر شرياناً من شرايين الامبراطورية ، وطريقاً حيويًا لتجارتها تدافع عنه بكل ما وسعت

ألقى السنيور موسوليني خطابه الزمان غداة الاتفاق الذي عقد أخيراً بين إيطاليا وألمانيا ، وكان من أهم نتائجه اعتراف

لعدوتها روسيا السوفيتية التي تعاون الجبهة الجمهورية في أسبانيا ووربعاً كانت ألمانيا إلى جانب ذلك ترى في التدخل في شؤون أسبانيا وغرب البحر الأبيض وسيلة لإثارة المسألة الاستعمارية التي تعلق عليها أهمية كبيرة

وقد امتازت خطط الدولتين الفاشستيتين في العام المنصرم بالاندفاع والتحدى ؛ وما زال السنيور موسوليني بالأخص يبرق ويتوعد في كل خطبه وتصريحاته ، وينوء بقوة جيوشه واستعداداته وينذر أوروبا بالويل إذا لم تنزل عند أطباعه ومطالبه ؛ وما زالت انكلترا وهي التي يخصصها « الدوتشي » بأكبر قسط من الوعيد والتحدى تقابل الموقف بالزناة والاعضاء ، ماضية في تقوية تحليقاتها في نفس الوقت بكل ما وسعت ؛ كذلك ترى ألمانيا النازية تنحو في خططها السياسية هذا النحو فتتقض الموائيق والعهود متى شاءت ، وتلوح في كل فرصة باستعداداتها العسكرية ؛ وفرنسا التي هي محور هذه الضربات تتلقاها في هدوء وتحاول مع حليفها القديمة انكلترا أن تذلل الصعاب والأزمات بالأساليب السياسية ، وهي ماضية أيضاً في مضاعفة استعداداتها العسكرية العظيمة

ومن المحقق أن الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا وانكلترا ترغب في السلام كل الرغبة ، وتعمل على انقضاء خطر الحرب بكل ما وسعت ؛ كذلك لا ريب في أن الفاشستية لا تبدي مثل هذا الحرص في المحافظة على السلام واجتناب أخطار الحرب ؛ ولقد اندفعت إيطاليا وألمانيا خلال هذا العام إلى إثارة عدة أزمات دولية كانت كل منها تكني لإضرام نار الحرب ، ففرض ألمانيا لميثاق لوكارنو ومهادنة الصلح ، وغزو إيطاليا للحبشة وحملاتها المنيعة على انكلترا ، وعلى عصبة الأمم ، وعمامها ممّا على إضرام نار الحرب الأهلية في أسبانيا ، كل هذه كانت وما تزال تثير كدراً في أفق السلام ، وقد كادت في أكثر من فرصة أن تغدو خطراً حقيقياً على السلام

وهذه النزعة الخطرة التي تندفع الفاشستية فيها دون تدبر للمواقب ترجع إلى حالة نفسية تستلها الفاشستية ؛ فالدول الغربية التي خرجت من الحرب بأكبر قسط من الفتيمة ، والتي تبسط سلطانها على امبراطوريات استعمارية شاسعة ، وتستأثر بوفرة

هائلة في المواد الأولية ، تتمتع بمستوى مرتفع من الرخاء الاقتصادي ، ولها صناعات مزدهرة ، وتجارة خارجية عظيمة ، وهي تحرص على ذلك كله ، وتجنب الحرب ما استطاعت ، لأن الحرب نذير الخراب والبؤس الاقتصادي ؛ وهذا مثل انكلترا وفرنسا وبلجيكا ؛ فهي دول « راضية » لا تود بحالتها بديلاً ، أما الدول الفاشستية ، أو بمباراة أخرى إيطاليا وألمانيا ، فهما من الدول « غير الراضية » لأنهما تعانيان حالة من البؤس الاقتصادي ولا تحتكجان على مقادير كافية من المواد الأولية ، ولا تتمتعان بمقدار مرض من الرخاء ، فهما لذلك ساخطتان ، تمحذان على الدول « الراضية » ، وتودان تغيير هذه الحال والاستيلاء على بعض المستعمرات الفنية التي تكفل لها الحصول على المواد الأولية ؛ وإذا كانت الفاشستية تقوم في الداخل على العنف ، فهي لا ترى أيضاً سوى العنف وسيلة لسياستها الخارجية ، وهي تندفع بلا تدبر للمواقب ، لأنها تعرف جيداً أن الدول « الراضية » أشد ما يكون زهداً في مقابلة العنف بالعنف ، وأنها تعمل جهدها لاتقاء خطر الحرب ؛ وقد نجحت الفاشستية في استغلال هذه الحالة ، وحقت لنفسها بالعنف ألواناً من الظفر ، في ميدان السياسة والحرب ، كغزو الحبشة ؛ ولا تزال تسرف في الوعيد كلما لاح لها أمل في التحويل والاستغلال

على أن الذي لا ريب فيه هو أن ألمانيا وإيطاليا مهما بلغت اليوم من القوة لا تستطيعان الاضطلاع بحرب أوربية كبيرة ، فكلاهما تفتقر إلى المال والمواد الأولية ، وإن كانت غنية بالرجال والأساليب الفنية ؛ والحرب المعاصرة تقوم على المال والمادة كما تقوم على الفن والسواعد ؛ ومن ثم كان تلهف ألمانيا على استرداد مستعمراتها وهي أمنية تبدو مستحيلة التحقيق على الأقل في الوقت الحاضر ؛ ثم إن تيار الحوادث لا يستقر على حال ، فهذه الحرب الأسبانية تتطور في مصلحة الجمهوريين ، والثورة تدنو إلى الفشل ؛ وسيكون فشل الثورة الأسبانية ضربة أليمة ولكن عادلة للفاشستية التي أنارتها ؛ والأحوال السياسية تتطور في أوروبا الوسطى تطوراً سريعاً ، ودول الاتفاق الصغير تنظر بصد خبطة الدوتشي في ميلان وما ورد فيها من إشارة إلى تعديل المعاهدات ، إلى السياسة الإيطالية وغاياتها بمنتهى الريب ، بل إن الاتفاق الذي عقده أخيراً